الواقع العلمي الذي نتجّه إليه اليوم بقوّة، إذ كانوا يردّون على الاعتراضات والشبه التي وردت، ولا تزال ترد على هذه الآيات، سواءً ما يتحدث منها عن الأرض أو البحار، أو الأفلاك وما كان في حكمها، ودفاعهم كان مستنداً على حجّة وعلم، وما كان هذا الجهد العظيم إلّا لإبراز عظمة القرآن، واستحضارِهِ كلّ دقيقٍ في الحياة وجليلٍ، هدىً وضياء.

الفصل الثالث

الكشف عن المقاصد الشرعية من خلال الدلالات العلمية والتطبيقات الحديثة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الدلالات والتطبيقات العلمية الحديثة، وبيان معانيها وخصائصها.

المبحث الثاني: الوقوف على الأدلة العلمية والتطبيقات الحديثة، وربطها بالمقاصد الشرعية الخمسة: (الدين، العقل، المال، النسل، النفس).

المبحث الثالث: أوجه الحاجة إلى توسيع آفاق الطرح المقاصدي.

المبحث الرابع: أخطار القراءة المنفردة للعقل دون النقل.

المبحث الأول

الدلالات والتطبيقات العلمية، وبيان معانيها وخصائصها

التمهيد

يُعد علم الدلالة من العلوم القديمة التي تهتمّ بدراسة فحوى الكلمات واستنباط معانيها، وقد أولاها العلماء أهميةً كبيرةً على مرّ العصور، إذ تدخل الدلالة في التفسير والتاريخ والأدب وغير ذلك من مختلف الفنون، وقد كانت أيضاً علماً مستقلاً قائماً بذاته كنوعٍ من أنواع الفلسفة المعاصرة، إذ كان لهذه العلم حضورٌ مؤثرٌ في سير الأبحاث العلمية وتطورها. وكأي علمٍ من العلوم يكون في تعريفه شقين، أحدهما لغوي، والآخر اصطلاحي، وقد تنوّعت تعاريف العلماء وتعددت بناءً على المدلول الذي يريدون بيانه، وكان مما ناسب مقام البحث هنا التعاريف التالية لغةً واصطلاحاً:

تعريف الدلالة لغةً:

الدلالة لغةً دلّه على الشيء يدلّه دلاً ودلالةً فاندلّ، سدده إليه، والدليل ما يستدلّ به، والدليل كذلك الدالّ على الطريق، والجمع أدلة وأدلاء، قال في ذلك سيبويه: الدليلي علمه بالدلالة ورسوخه فيها[٩٣].

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة تعريف الدلالة، وفيه أن الدلالة من مصدر دلّ، والدلالة العلم المختص بدراسة معاني الألفاظ والعبارات والتراكيب اللغوية وسياقاتها المختلفة[٩٤].

الدلالة اصطلاحاً:

الدلالة كون الشيء بحالةٍ يلزم من العلم به العلم بشيءٍ آخر، والشيء الأول هو الدالّ، والثاني هو المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النصّ، وإشارته، والدالّ والدلالة والدليل المرشد وما به الإرشاد[٩٥].

وجاء فيه أيضاً ما يمكن التوصّل بصحيح النظر فيه إلى آخره، فلأن يراد بلفظ ما المقدمات المأخوذة مع الترتيب، كأنه قيل الدليل مقدمات مرتبة يتوصل بها بسبب النظر الصحيح فيها، أي الدليل سبب ترتيبها إلى المطلوب الخبري[٩٦]، وقال الزمخشري في الدلالة: هي أساس البلاغة، دلّه على الطريق وهو دليل المفازة، وهم أدلاؤها، وأدللتُ الطريق، اهتديت إليه[٩٧].

---

٩٣ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. ١٤١٤- ١٩٩٤. لسان العرب. دار صادر بيروت. ص ٢٧٤.

٩٤ عمر، أحمد مختار عبدالحميد. ١٤٢٩-٢٠٠٨. معجم اللغة العربية المعاصرة. ج ١. ط١. نشر مؤسسة عالم الكتب: القاهرة. ص ٧٦٤.

٩٥ الجرجاني، علي. ١٤٠٣/١٩٨٣. (مرجع سابق) ص ١٠٤.

٩٦ التهانوي، محمد بن علي. ١٤١٦- ١٩٩٦. موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون. نشر مكتبة لبنان ببيروت. ج١ ص٧٩٦.

٩٧ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو. ١٤١٥-١٩٩٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل. نشر دار الكتب العلمية ببيروت. ص ١٣٨.

وبعد هذا العرض السريع لمعاني الدلالة لغةً واصطلاحاً نخلص إلى أن الدلالة علمٌ يوصل إلى شيءٍ آخر، فكأن الطريق يتسع حتى يتمّ الظفر بالمراد، وهو ذاته ما يقوم عليه عمل الباحثة في هذه الدراسة بإذن الله، وذلك تتبعاً للنصوص العلمية التي تدلّ على المقاصد الشرعية، وتتبعاً للأدلة العلمية المعاصرة وإرجاعها إلى أصولها وثوابتها، والاستدلال النصيّ والمقاصدي عليها بما ينسجم مع الشرع القويم والواقع المعاصر.

وما كان هذا التمسّك بالدليل وملاءمته على الواقع إلا بسبب ما نرى من هجومٍ على النصوص الشرعية ومحاولة هزّ مكانتها والعبث بمعانيها وفحواها، إخضاعاً لنقدها وتقليلاً من شأنها في صناعة الواقع، وصدق الله القائل في كتابه: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)[٩٨]، ونظراً لما للدلالة الشرعية من قدرٍ ومكانةٍ رفيعة كان لابدّ أن تختصّ ببعض الخصائص التي تزيدها جلالاً، ومن تلك الخصائص:

- **الدلالات ثابتة:**

فهي حقٌ وصدقٌ قاطعٌ لا يقبل التغيير والتبديل، إذ قال الله في كتابه: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[٩٩]، وقد تحدث الإمام ابن عاشور في تفسير هذه الآية وكان ممّا قاله أنّ هذه الجملة معطوفة على الآية التي تسبقها: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)، والتقدير هنا بمثابة قل، أفا يكون غير الله لي محكّماً في أموري العامة والخاصة وقد جاءنا بهذا الكتاب العدل الذي فيه تنظيم وقائع

٩٨ سورة الأنعام، الآية ١٦.

٩٩ سورة الأنعام، الآية ١١٥

الدين والدنيا وحاضر الأمور وماضيها وما في حكم الغيب منها، فهو الثابت شكلاً ومضموناً، لا يطرأ على أدلته ما يعتري نصوص البشر من الاندراس والتحديث المستمر أو الكساد.

الدلالات شمولية:

فكل ما يستجد من أمورٍ عظيمةً كانت أو دقيقة نجد لها في الوحي دلالة، بصورةٍ شاملة تناقش كل مطالب الحياة، ضروراتها وكمالياتها، قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)[١٠٠]، حتة إن القرآن الكريم يجمع في اللفظ القليل كثيراً من المعاني، يكون اللفظ لها كالأساس الراسخ.

- **الدلالات معصومة:**

الدلالات الشرعية بألفاظها ومعانيها وسياقاتها معصومة، وفي ذلك قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[١٠١]، وقد تحدّث ثلة من العلماء في هذا السياق، ومن أبرزهم الإمام ابن قيم الجوزية والإمام الشاطبي، إذ اتفق حديثهم على تقرير العصمة، والمقصود بالعصمة هنا ما في الدليل من الحكم والبيان التامّ، وذلك في أحسن السياقات وأوضحها، وهي نصوصٌ معصومة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب وكل صفة نقص، لذلك جين نعود إلى عهود التشريع الأولى نجد أن عهد الصحابة –رضي الله عنهم– حوى أصحّ العلوم وأدقّ الأفهام، وذلك لقربهم من مصدر الدليل واتصالهم بها عملاً وسلوكاً ومنهج حياة، يليهم التابعين وهكذا، حتى نصل إلى العهود المتأخرة التي دخل على النصوص حينها الاضطراب والتعقيد وفساد الرأي، وكان لهذا أسباب كثيرة منها التأثّر بالحضارة دون تأصيلها وتطويعها

---

١٠٠ سورة النحل، الآية ٨٩.

١٠١ سورة الحج، الآية ٥٢

بالدليل الصحيح، وإن وُجِد من يؤسلم هذه القوالب الحضارية لتتماشى مع المنهج الصحيح فهو -إلاّ ما رحم الله- موسومٌ بالتخلف عن زمانه، متأخرٌ عن أقرانه، والمراد هنا أن العصمة محققة في ألفاظ الأدلة ومعانيها .

- **الدلالات مقدّسة:**

فالذي أنزل هذه الأدلة ومعانيها قدّوس، وصفته تنطبق على كل ما تحت يده من موصوفٍ سبحانه، فهي دلالات شرعية واقعية منزّهة عن كل خطأ ونقص، دلالاتٌ تقطع السبيل على كل من يحاول أن يخضعها للتحليل والمناقض، وفق ما يراه من مناهج دخيلة أو أفكار تنادي بعزل الدين عن مسالك الحياة، وكلّ ما في هذا الأم من دعاوى باطلة[١٠٢].

بعد أن تحدثت في الشقّ الأول عن تعريف الدلالة وخصائصها أنتقل إلى الشق الثاني وهو تعريف التطبيقات العلمية الحديثة، كون هذه الدلالات وهذه التطبيقات طريقان موصلان إلى الكشف عن المقاصد الشرعية الموجودة إمّا في النصّ القرآني العلميّ، أو في المكتشف والابتكار العلميّ أياً كان نوعه مادام يخدم الإنسانية ويصل بها إلى تحقيق الغايات.

التعريف اللغوي للتطبيقات:

قال الكفوي في تعريف التطبيق: تطبيق الشيء على الشيء جعله مطابقاً له بحيث يصدق عليه[١٠٣].

---

١٠٢ في خصائص الدلالة انظر:

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. ١٤٠٤-١٩٨٤، التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.

السعدي، عبدالرحمن بن ناصر. ١٤٢٠- ٢٠٠٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. نشر مؤسسة الرسالة.

ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. ١٤١١-١٩٩١. إعلام الموقعين عن رب العالمين. نشر دار الكتب العلمية ببيروت.

١٠٣ الحسيني، أيوب بن موسى. ١٤١٩-١٩٩٩. الكليات. مؤسسة الرسالة، بيروت. ص ١٠٥ .

التطبيقات اصطلاحاً:

هي مجموعة من المفاهيم والحقائق والمعارف والمبادئ والاتجاهات التي ينبغي على المتعلمين تطبيقها تطبيقاً عملياً، ووعيها ومعايشتها بطريقةٍ تنمّي قدراتهم على الأداء العلمي بشكلٍ جيد، وتساعدهم على تكوين السلوكيات والعادات والاتجاهات الحسنة، وتعمل على تنمية ميولهم، وإشباع حاجاتهم بطريقةٍ إيجابية لتحقيق الشخصية المتكاملة للإنسان الصالح في ضوء التصور الإسلامي[١٠٤].

التعريف اللغوي للعلم:

العلم مصدر الفعل علم، والجمع علوم، علم الشيء شعر به وعرفه، وأيقن به وصدّقه، والعلم يعني إدراك الشيء على حقيقته[١٠٥].

التعريف الاصطلاحي للعلم:

العلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص من الثاني، وقيل: العلم هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه، وقيل: هو مستغنٍ عن التعريف، وقيل: العلم: صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات، وقيل: العلم، وصول النفس إلى معنى الشيء، وقيل: عبارة عن إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول، وقيل:

---

١٠٤ الفاربي، عبداللطيف وآخرون. ١٤١٤-١٩٩٤. معجم علوم التربية. مطبعة النجاح بالدار البيضاء، ص ٢٧٢.

١٠٥ دوزي، ربنهات بيتر، النعيمي. محمد سليم. ١٤٢٠-٢٠٠٠. تكملة المعاجم العربية. وزارة الثقافة والإعلام العراقية. ج٧ ص٢٩٠.

عبارة عن صفةٍ ذات صفة[١٠٦].

ومن خلال هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية فإنّ التطبيقات العلمية الحديثة تمكننا إلى مزيدٍ من فهم الواقع، ثم تنزيل النصّ القرآنيّ عليه لاستنباط القصد الشرعيّ الذي نخلص إليه من خلال تطبيق هذه التطبيقات، فهي حتماً لن تخرج عن أحد المقاصد الخمسة، إمّا تطبيقٌ علميٌ يساعدنا على حفظ الدين أو النفس أو العقل أو المال أو العرض، وهنا لبّ التشريع، إذ بتحقيق هذه المقاصد صلاح أمور العباد واستقامة أحوالهم في دنياهم وأخراهم، وهي في خلاصتها تنمّي شخصية المسلم باتّزانٍ وتكاملٍ يجمع بين العلوم الشرعية المنقولة، وبين العلوم العصريّة المتجددة، وهذا الاتزان يشمل كل الجوانب الجسدية والعقلية والروحية والاجتماعية ... .

من الدلالات العلمية النصيّة والتطبيقية التي يُؤخذ بها في مجال هذه الدراسة: الاهتمام بالكلمة والنصّ والفكرة وصولاً بها جميعاً إلى الواقع بقصد تغييره أو تعديله بما يتناسب مع النهج الشرعيّ القويم، فالمجال العلمي اليوم توسّع كثيراً حتى أصبح لكل كلمةٍ وكل تطبيقٍ نراه صلة بالقرآن الكريم، حيث أن القرآن قرّب العلم وأهله وحثّ باستمرارٍ عليه، وهذا ما جعل للنصّ القرآني العلميّ دلالتين: واحدةٌ في العبارة ومعناها، وأخرى في تطبيق النصّ وفحواه.

وبلا شكٍ فإنّ الواقع العلميّ الذي نعيشه اليوم له أثرٌ في فهم القرآن بصورةٍ متكاملة، لذلك نجد في المكتبة الإسلامية العصرية الكثير من الدراسات والأبحاث التي تناقش الجوانب العلمية والإعجازية والخطابية في القرآن الكريم، إيماناً عميقاً بالأثر الكبير الذي يطبعه هذا الكتاب العظيم على عقلية المسلم

١٠٦ الجرجاني، ١٤٠٣/١٩٨٣. (مرجع سابق). ص ١٥٥.

وبنائه الفكريّ.

الوصف القرآني للحياة حولنا أصبح اليوم يأخذ حيزاً ذا أبعادٍ في ذهن القارئ المتدبّر، للكلمة وقعها في القيادة إلى التأمّل والاستنتاج ثم التطبيق، فعُمق فهم إنسان البادية يختلف كثيراً عن من عاش حياة المدنيّة الصاخبة، التي تنمو بصورةٍ مطّردة، إذ يظلّ في الذهن سؤالٌ ملحٌّ كيف نستطيع التوفيق بين ما نعيشه واقعاً وبين ما نقرأه تعبّداً، وبهذا فالدلالات النصيّة القرآنية إضافةً إلى بركتها وقداستها باتت تفتح أوجهاً أخرى تحثّ على التطوير العلميّ بقالبٍ شرعيٍّ متّزن، قالبٌ يترجم النصّ إلى واقعٍ ذا مفاهيم جديدة، جمعاً بين أصالة النصّ والنقل، وتطوّر الواقع والعقل.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثاني

الوقوف على الأدلة العلمية والتطبيقات الحديثة، وربطها بالمقاصد الشرعية الخمسة (الدين، العقل، النسل، المال، النفس)

تمهيد

بدايةً: فإنّ هذا المبحث الثاني من الفصل الثالث يعتبر لبّ البحث وخلاصة فكرته التي لأجل بيانها توالت بقية الفصول والمباحث التي تدعم بعضها بعضاً، وإني –رغم قلة بضاعتي– في شغفٍ لما يهديني الله إليه من أفكارٍ واكتشافاتٍ وابتكاراتٍ علميةٍ، تخدم المسلمين والناس أجمعين، لاسيّما في زمن التقنية والتطور الملحوظ، إذ كانت هذه الابتكارات ولازالت تلبي حاجات الإنسان، وتسهّل له أداء مهمته التي خلقه الله لأجلها، وتحقيق التقدم الديني والدنيوي الذي يجعل المسلم ذا أثرٍ فاعلٍ في مجتمعه.

بوصف هذا المبحث يتحدث عن الأدلة العلمية وربطها بالمقاصد الخمسة الشرعية فإني سأذكر المقصد أو المقصدين وما يندرج تحتهما من ابتكاراتٍ واكتشافات، وبعد ذلك كيفية تطبيق المقصد الشرعي خلال هذه الاكتشافات العلمية، وما يترتب عليها من آثارٍ على الفرد والجماعة. ذلك أن حلقة الدين والعلم تتكاملان لا تتصادمان، والمجتمع السليم هو الذي ينمو وتنمو معه علومه التي تعينه على التقدم، مسترشداً بنور الله وقويم توجيهاته التي كفلت قيام الحضارة على جميع المشارب.

وسأعرض مستعينةً بالله بعض النماذج التي تعين على تحقيق مقصد حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، وكثيرٌ من هذه الابتكارات ما يكون متداخلاً يجمع بين مقصدين وأكثر، وهي أفكارٌ ساهمت فيها الباحثة بعضها وليدة حاجة، وبعضها الآخر تأكيداً على أن العلم والدين كيانٌ لا محدود، وجود أحدهما لا ينفي الآخر.

وفي ثنايا هذا المنهج الإسلامي الرزين الذي يحترم العقل ويحثّه على الإبداع، ويقدّس النقل تقديساً يحفظ له هيبته وسيطرته نستذكر ما كان جليّاً في عصور أوروبا الوسطى، وبداية انهزامها، حيث كان الصراع بين العلم والدين قد بلغ مداه، حينها كان العلماء ينحون منحىً مغايراً لاتجاه الكنيسة، فأدّى ذلك إلى انتكاس السلطة بعدما وصلت قمتها، وما كان ذلك إلا بسبب الفكرة التي تبنوها أن الدين يحارب العلم ويمنع تقدمه، ولا منجى من هذه الانتكاسة إلا بانتصار العلم ومحق الدين –هكذا يزعمون–، فكانت النتيجة ما حدثنا عنه التاريخ، من الآثار الخطيرة على الحياة الأوروبية والتوجهات الإلحادية التي نفت الدين كله والأفكار المنحرفة التي لا تؤمن إلا بالمادة، فكانت تسعى لمحاربة رجال العلم وتنقض اكتشافهم، رغبةً في بقاء طابع القدسية على رجال الدين، فأدى ذلك إلى بعد الناس عن الدين ونبذهم له ونفورهم على تقديس العلم والعقل[١٠٧]. وهذا كله عبرةً لنا ودرساً شاهداً ألا نعيد تلك الكرّة وقد هدانا الله إلى الصواب، فالحكمة ضالّة المسلم أنّى وجدها هو أحقّ بها.

- **حفظ الدين:**

لا يجادل مسلم في أن أغلى ما يملكه المرء دينه الذي منّ الله عليه به، فهو الروح والحياة، والعطاء المتّزن والنماء، إذ لن يستقيم أي أمرٍ وهو بمنأىً عن الدين القويم.

لذلك جاء الحديث عن الحفاظ على هذا الدين والدفاع عنه والدعوة إليه بشتى الوسائل، والعمل على ابتكار الأفكار والبيئات التي تساهم في انتشاره، ومن هذا المنطلق تظهر الأهمية الكبيرة للبحث في المقاصد الشرعية بالنظر في التطبيقات العلمية الحديثة وتحديداً المقاصد الخمس التي أرشد الشارع إلى حفظها.

وخلال هذا المبحث تناولت الباحثة كل مقصدٍ من هذه المقاصد مع بيان الأفكار التطبيقية أو الوسائل العصرية العلميّة التي تعين على تحقيقه، وربطه بالأدلة الشرعية الواردة في هذا المجال، تأكيداً على

---

١٠٧ الغامدي، أحمد بن عبدالله بن سرور. الصراع بين الكنيسة والعلم أسبابه وآثاره. لم أجد دار نشر أو تاريخ طبع لهذا الكتاب، لأنه نسخة الكترونية، ص ٣٣٠–٣٤٠.

صلاح الدين في كل زمانٍ ومكان، ثم حرصاً على إضافة فكرةٍ أو رؤيةٍ تثري هذه الدراسة، وذلك تطرّقاً إلى الوسائل العصرية التي في تهذيبها أو ابتكارها خدمة الدين وتحقيق مقاصده.

يقول الإمام الشاطبي: "المصالح الضرورية التي إذا فُقدت لم تجرِ مصالح الدين على استقامة، بل على فسادٍ وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين"[١٠٨]. وجاء في حفظ الدين أن المراد منه "تثبيت أركانه وأحكامه في الوجود الإنساني والحياة العلمية المعاصرة، والعمل على إبعاد كل ما يخالف دين الله ويعارضه، كالبدع ونشر الكفر والرذيلة والإلحاد والتهاون في أداء واجبات التكليف"[١٠٩].

يحسن التنبيه هنا إلى أن كل التطبيقات العلمية والأفكار الحديثة وإن تعددت فهي في نهاية المطاف تندرج تحت حفظ الدين، فإذا عنّت فكرةٌ علميةٌ تساهم في تحقيق مقصد حفظ النفس مثلاً فالحقيقة أنه بحفظ هذه النفس وتمكينها تمكينٌ لإقامة الدين، فالمقاصد الشرعية كلٌ لا تتجزأ، والعكس بالعكس، فإذا اجتهدنا في إقامة بقية المقاصد ولم يتحقق حفظ الدين فلا سبيل لإقامة البقيّة على الوجه السليم، والخلاصة أن التشريع كيانٌ كامل، إن سقط جانب منه قوّض بقية الأركان، والله متمّ نوره.

- **التطبيقات العلمية الحديثة المتعلقة بحفظ الدين:**

١. يعجّ العالم الإسلامي بعددٍ كبير من العلماء المفكّرين في شتى المجالات، ودائماً ما يدور بذهني حين أرى غيرنا من الدول لماذا لا نلمس حتى الآن أثراً واضحاً للعقول الإسلامية المبدعة، إذ أنها لن تبدع فحسب، بل ستكون أنموذجاً حيّاً للشباب المسلم، وقوةً للدين وأهله، وسلاحٌ للكتلة الإسلامية في كل مجال، ذخيرتها منها وإليها.

وبابتكار فكرةٍ تسهم في تحقيق هذا المقصد أرى أن في عمل نقابات تجمع الباحثين والمفكرين في شتى التخصصات من أبناء البلد الواحد أو غيره مادام الإسلام يجمعهم، وبعد ذلك تُعزى إليهم

---

١٠٨ الريسوني، أحمد. ١٤١٢-١٩٩٢. نظرية المقاصد عند الشاطبي. الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض. ٣١٩/١.

١٠٩ الخادمي، نور الدين بن مختار. ١٤٢١-٢٠٠١. علم المقاصد الشرعية. مكتبة العبيكان، جدة. ١/ ٨١.

مسائل مستجدة لإيجاد حلول لها لا تتعارض مع التشريع القويم، وأيضاً يكون من عملهم العصف الذهني بابتكار المشكلات وإيجاد المخارج الشرعية السليمة لها، ويدخل في هذا التطوير التقني المعلوماتي والتغذية المستمرة بما يحقق النموّ العصري على كل الأصعدة، فالشرع حضارة.

إننا إن لم نوجد لهذه الطاقات المستنيرة البيئة الداعمة والمحضن الديني الآمن فسنجدها قد غادرت إلى مواطن أخرى، إمّا بما اصطلح على تسميته بهجرة العقول، أو مواطن معنويةٍ يندرج تحتها الشعور بالضعف والهوان وفقدان العوين!

أدرك يقيناً أن كل بلدٍ إسلامي قد سبق العمل بهذه الأفكار بل ذهب إلى ما هو أعمق منها، ولكن ربما لا نزال نتشوّف إلى مزيدٍ من الآثار الملموسة على واقعنا الإسلامي العالمي، إذ لايخفى على عاقلٍ شراسة السباق الحسيّ والمعنويّ مع العالم الآخر الذي يلهث وراء تحقيق المادة دون اعتبار للدين والقيم والأخلاق، أما وقد جمع الله الحسنيين؟

الدولة المسلمة قويةٌ بالله ثم بمخرجاتها الفتيّة، المجتمع المسلم يعضد بعضه بعضاً، ويسند أركان نفسه، فلا يخيفه عدو أو تقف في طريق تقدمه معضلة إلا وقد لها من وحيه الغضّ الحل الأمثل.

٢. العالم التقني الذي نعيشه، ووسائل التواصل بسيطرتها على الحياة وجوانب الخير والشر الذي فيها باتت ضرورة ملحّة، إذ لا يجادل عاقل في أن هذا الغزو الناعم قد سيطر علينا كلنا، فغيّر مفاهيم وغرس ثقافات وساهم في بناء الخير ونقيضه، كلٌ حسب توجهاته الفكرية.

باتت الأجهزة المحمولة المتصلة بالشبكة الالكترونية عصباً هامّاً لا تقوم الحياة بدونه، والجهل كل الجهل إبعادها جملةً وتفصيلاً رغبةً في البعد عن مشكلاتها، ولكن التهذيب مطلب، ما أردت قوله هنا من باب التطبيق العلمي الذي يساهم في تحقيق مقصد حفظ الدين: تكثيف الرقابة المعلوماتية التي تُبث بشتى الوسائل، وملاحظة طبيعة الأفكار المغروسة في عقول النشء والكبار، تلك المراقبة

التي ستكون مقنّنةً من الدولة عبر أجهزتها ذات الكفاءة العالية، فهي تنقّي الغزو الإعلامي من كل فساد يتخلله، وذلك عبر الشبكات العنكبوتية والأقمار الصناعية، وما كانت هذه الفكرة إلا بسبب ما نراه من هجمةٍ شرسةٍ على الدين والعقيدة والأخلاق، هذا فضلاً عن الدعوات الصريحة إلى الإلحاد والانحلال والسحر، وتشويه صورة الإسلام بطريقةٍ ترسّخ في الذهن أنه دين وحشيةٍ وإرهاب ونهب، وأن الأديان حريات شخصية لا تعدو ذلك قدراً !.

هذه الحملات التي نشهدها اليوم باتت تسيطر على مختلف أنواع البثّ الإعلامي، تصادفنا في تطبيقات الألعاب، وإعلانات المواقع والبرامج الشهيرة على وسائل التواصل، خاصّة تلك التي توجّه إلى الطفولة لإعادة بناء أذهانهم، فلا دين ولا انتماء.

يدخل في ذلك أيضاً أهمية المحاربة الشرسة لكل من يستهزئ بالمقدسات، والعلماء، والآيات، ويروّج هذا على وسائل التواصل، فيكون الأمر بإيقافه وعقوبته تعزيراً حسب ما يراه النظام الإسلامي في هذا الصدد، لأنه إن تُرك الأمر فلن تبقى للإسلام هيبة، وبالتالي سقطت بقية الأركان.

الدليل القرآني وأقوال العلماء المفسّرين:

في هذا السياق وقفتُ على تفسير الإمام الرازي لقوله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[١١٠] حيث قال –رحمه الله–: "لا يحصل الإيمان إلا بحكمهِ وإرشاده وهدايته، وحققوا ذلك بأن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق؟ وعقل النبي المعصوم كامل مشرق، فإذا اتصل إشراق نوره بعقول الأمة قويت عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال، ومن الضعف إلى القوة، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية، والذي يؤكد ذلك أن الذين كانوا في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا

١١٠ سورة النساء: الآية ٦٥.

وتنميته جازمين متيقنين كاملي الإيمان والمعرفة، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا، وهذه المذاهب ما تولدت إلا بعد زمان الصحابة والتابعين، فثبت أن الأمر كما ذكرنا"[١١١].

والخلاصة، فإنه مهما حاول الوالدان الرقابة الذاتية وغرس تقوى الله، إلا أن هناك المهمة الكبرى والمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتق أولي الأمر الذين يؤرّق مضجعهم تهاوي القيم الإسلامية يوماً بعد يوم، إلا أن تقنين هذه المسألة وإعادة صياغة المدخلات الفكرية أمرٌ ليس محالاً، إذ ربما يكون بتطبيق شيء من هذه الأفكار حفظ الدين على أهله وما يلي ذلك من نتائج طيبةٍ ينعم بها الجيل المسلم حقبةً وراء حقبة.

هاتين الفكرتين أعلاه عرضتهما توضيحاً، وإلّا فالأمر أكبر من تطبيقات علميةٍ معاصرةٍ أو ابتكاراتٍ تحقق مقصد حفظ الدين، ولعلّ في بقية المقاصد كلها علاقة وارتباط وثق بتحقيق هذا المقصد الأساس، والله ولي التوفيق.

- **مقصد حفظ العقل:**

لقد أولى الإسلام العقل المنزلة العظيمة، وكرّمه وأعلى شأنه، بل جعل عليه مناط التكليف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل "[١١٢].

---

١١١ الرازي، فخرالدين محمد عمر بن الحسن. ١٤٢٠-١٩٩٩. مفاتيح الغيب / التفسير الكبير. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٠/ ١٢٧.

١١٢ بن حنبل، أبوعبدالله أحمد بن محمد. ١٤٢١-٢٠٠١. مسند أحمد بن حنبل. ط١. ت: شعيب الأرناؤوط. نشر مؤسسة الرسالة ببيروت. ٤١/ حديث رقم ٢٤٦٩٤.

فلا يوجّه الخطاب الشرعي إلا للعقلاء، بينما يسقط هذا التكليف عمّن فقد هذه النعمة العظيمة، ولاريب فالعقل سرّ التفضيل بين الإنسان وبقية المخلوقات.

وجاء في مكانة العقل: "حفظه حتى يستطيع أداء مهمته التي كلفه الله بها، فالعقل شرط التكليف فهماً وتنزيلاً ومناطاً في التعامل مع أحوال النفس والكون، اكتشافاً لأسرارهما، واستنباطاً لقوانينهما، والاستفادة من خبراتهما"[١١٣]. فيما ورد عن الأستاذ العقاد حديثاً عن العقل: " والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه"[١١٤].

- **التطبيقات العلمية الحديثة المتعلقة بحفظ العقل:**

في هذا الجانب طرحت بعض الأفكار التي قد تساهم بإذن الله في تحقيق هذا المقصد، والمراد أن تكون ابتكارات أو تطبيقات علمية تجمع بين مبادئ الشرع القويم ومتطلب العصر الحديث.

١. كنت قد تطرقت في حفظ الدين إلى تأثير الإعلام الجديد على الحياة عموماً وعلى المبادئ والأخلاق والثقافات على وجه الدقة، وكيف أن تقنين الإعلام يُساهم جداً في زراعة الوعي بطريقةٍ مرنةٍ تتسلل بين طيّات الأجهزة وملحقاتها، ذلك لما نلمسه اليوم من تأثيره المباشر لاسيّما مع انتشار التعلم والتعليم عن بعد، تلك الخبرات والتجارب السريعة التي تجمع العالم في كفّةٍ واحدة!

١١٣ الخادمي، نور الدين بن مختار. (مرجع سابق). ص ٧٩.

١١٤ العقاد، عباس محمود. ١٤٣٩-٢٠١٨. التفكير فريضة إسلامية. ط١. وكالة الصحافة العربية، مصر ص٧.

في هذه السطور لن أتحدث عن الأثر الإيجابي الكبير فهو أكبر من أن يُحصر، ولكن المهم – بالنسبة إليّ في هذا المبحث– تسليط الضوء على الجانب الآخر حتى نوجد له حلاً يمكننا من تلافي المشكلات النامية أثناء استغراقنا في العالم الافتراضي، مع تحقيق مقصد حفظ العقل وبقاء التطور العلمي الراهن.

يحسن هنا الإشارة مرةً أخرى إلى فكرة التحكم المعلوماتي وتصفية ما يُعرض للمتلقّي سواءً كان مسموعاً أو مرئياً، وذلك عبر جهاتٍ تتولى الرقابة الدورية وتطرح كل غثٍ وسمين جانباً، فضلاً عن استبعادها الأفكار المسمومة والثقافات التي تقوّض الأخلاق فالمجتمعات.

أرى أنه بمثل هذا النوع من الرقابة على اختلاف أشكالها الحديثة تأسيس للبنات المجتمع على بصيرة، وتربية فاعلة تعزّز الأفكار والعقول بما يعود بالنفع على كل الأطياف، فتقلّ الجريمة، ويعرف الفرد ما له وما عليه، ويرتقي المستوى الفكري، وتباعاً تتحقق كل المقاصد الخمسة لأنها كلٌ لا يتجزّأ، وهذه الرقابة التي أقصدها لا تنطبق على المجتمع المسلم فحسب، بل كلما اتسعت الدائرة ساهمت في إخراج جيلٍ واعد يحمي نفسه بنفسه.

إننا إن لم نكثف قدراتنا العلمية وخبراتنا الهائلة للعناية بحفظ العقل فسيملأ الفراغ غيرنا ممّن همهم الأكبر هدم الدعامة الأساسية واستهداف القيم الأصيلة التي أكّد عليها القرآن والسنة. ولك أن تتخيّل أيها القارئ الكريم مقدار التأثير المباشر وغير المباشر الذي تخلّفه مواقع تعليم السحر، صناعة الخمور والمخدرات، دعوات الانحلال الصريحة والمستترة، القتل والإفساد ... وكيف تتكرر هذه الأفكار بطرقٍ متعددة حتى يألفها المتلقّي ويقل استنكارها، ويوماً بعد يوم نجدها تنهش جسد الكيان المسلم، وقد تغلغلت على مدى سنين. ومع هذا فالحمد لله الذي سخّر الله لنا التقنية العلمية التي نستطيع خلالها تحجيم هذا التمدد، والحفاظ على العقل، والأمر منوطٌ بنا جميعاً كلٌ حسب إمكاناته، أملاً بالله في حفظ الأنفس عن مواطن الردى، **أما الدليل القرآني ويليه تفسيره** فقد قال تعالى: " وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[١١٥]، والإحسان هنا يشمل كل شيءٍ يستطيع الإنسان التعاطي معه، كما أن الهلاك أيضاً ينطبق على الحسّي والمعنوي، وهلاك العقول أشد فتكاً من هلاك الأجساد، لأنها الفيصل وعليها الاعتماد.

ولعلّ فيما يتعلق بتكثيف الرقابة على الإعلام بكل صنوفه توسيع العمل بالأمن السيبراني[١١٦]، وقد حققت كثيراً من الدول نموّاً هائلاً في تطبيق الأمن السيبراني الذي يُعنى بحماية التقنية والمواقع والتطبيقات، وتصفية كل ما يعرض فيها مهدداً الأمن العام أو الخاص، ويُعنى كذلك بحمايتها من الاختراق والقرصنة وسرقة المعلومات أو تعطيلها، وقد أثبت الأمن السيبراني نجاحه الكبير وحدّ من المشكلات والاستغلال...الخ، لأنه يتتبع الحسابات ويراقب المعروض بدقّة. لذا أقول: ماذا لو أصبح أيضاً من مهامّ الأمن السيبراني حماية الدين والمبادئ والأخلاق السامية، والوقوف ضد من يسب وينتقص، أو ينشر رذيلةً، أو يدسّ فكراً ضالاّ، حمايةً لهذه الثوابت أن تُزعزع ومعالجةً للمشكلة الراهنة بطرقةٍ علميةٍ تحقق القصد الشرعي فتحفظ العقل وتحفظ ما وراءه، أظن أنّ في مثل هذا التطبيق سابقةٌ تخدم الشرع والعلم والمجتمع بذات الوسيلة، عسى الله أن يبارك الجهود ويسخّر الأفهام لما فيه صلاح العباد والبلاد.

٢. يسّر الله لنا الحياة بكل مشاربها، وهيّأ لنا أسباب العيش فيها، إذ آتانا عقلاً يفكّر، ودستوراً يحقق المصلحة ويحذّر ضدها، ووسائل تجعل الإنسان ملك هذا الكون والمخلوقات تحته تسخيراً.

ومادام المرء يتناغم مع الكون والعلم والحياة فهو سيواجه بعضاً من المشكلات متعددة الأسباب،

---

١١٥ سورة البقرة. الآية ١٩٥.

١١٦ الأمن السيبراني هو عبارة عن مجموع الوسائل التقنية والتنظيمية والإدارية التي يتم استخدامها لمنع الاستخدام غير المصرح به وسوء الاستغلال واستعادة المعلومات الالكترونية ونظم الاتصالات والمعلومات التي تحتويها وذلك بهدف ضمان توافر واستمرارية عمل نظم المعلومات وتعزيز حماية وسرية وخصوصية البيانات الشخصية واتخاذ جميع التدابير اللازمة لحماية المواطنين والمستهلكين من المخاطر في الفضاء السيبراني. الهيئة الوطنية للأمن السيبراني: **www.nca.gov.sa**

سواءً كانت في الجانب التطبيقي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، حتى تلك المستجدات الشرعية في الساحة العلمية التي تتطلّب النظر مليّاً قبل البتّ بصلاحها أو لا.

في اقتراحٍ ابتكاري يسهّل التعامل مع هذه المشكلات يطيب لي أن أطرح فكرة إدخال مواد إلى المواد الدراسية، من شبيه العصف الذهني وما في حكمه، وذلك في كل تخصص سواءً كان شرعيّاً أو علمياً أو اجتماعياً ... حيث يفكّر الطلبة في خلق مشكلةٍ تتفق مع نموّ الحياة، وفي ذات الوقت يضعون لها حلولاً، وبما أن هذه الفكرة إن كتب الله لها النور فستكون منطلقةً من البلدان الإسلامية، هذا يعني أن الطلبة سيأتون بحلول عمليةٍ معاصرة ولن تتنافى مع تعاليم الشرع الذي هو المبدأ القويم، إضافةً إلى أنه سيكون لنا دراسات بحثية جاهزة للتعامل مع كل حدثٍ مستجد، وبذلك يكون الحلّ من الجيل وإليه. هذا أيضاً سيجعل العقل في عملٍ ابتكاريٍ دؤوب، وسيحفظ عليه أموراً كثيرةً أهمها الإيمان التامّ بأن كل مشكلةٍ تواجهنا في الحياة العملية سنجد لها من قلب التشريع حلولاً تحقق المقاصد الأساسية وتخدم مصالح الإنسان. فقال تعالى: " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[١١٧]، أما وقد استنارت العقول واستبصرت الأفهام وسهّل الله لنا طلب العلم وهيّأ سبله، فقد حان الوقت للرقي بأنفسنا ومجتمعنا من خيرٍ كان فيه إلى خيرات نتأمّلها بإذن الله.

٣. تكتمل الدائرة التعليمية بالاستفادة من تجارب وخبرات الشعوب ونقل ما يصلحنا منها، مما يساهم في خلق بيئةٍ علميةٍ جديدة لشعبٍ واعد، وهذا ما نراه واقعاً، إدراكاً لمكانة العقل وصيانةً له أن يُملأ بما لا طائلة منه.

تُرى ماذا لو فكرنا في استقطاب الأساتذة الأكفاء وذوي الخبرات بدلاً عن فكرة ابتعاث عدد محدودٍ من الطلبة، مع ما في الابتعاث من إيجابياتٍ ، إلاّ أن تناول هذه الفكرة ربما يحقق ذات الإيجابيات،

---

١١٧ سورة الزمر. الآية ٩

أولاها: استفادة عددٍ كبير من الطلبة، وتوسيع الفائدة، ثانيها: الحفاظ على الأخلاق والدين لاسيّما من يُبتعثون إلى بلدانٍ غير مسلمة، إذ تحقيق الهدف العلمي لا يعني التهاون في المبدأ الشرعي والحلول متيسّرة، ثالثها: تقليل التبعات المادية والمصروفات على الجهة التي تتبنّى هذا العمل الجليل، رابعها: تطبيق فكرة التبادل العلمي الأستاذي مع البلدان الأخرى ولعلّ أعظم ما نجنيه الدعوة إلى الشرع القويم أثناء العطاء والتعليم، فالعقل والنقل متّسقان لا ينفكّان .

تأكيداً ودليلاً قرآنياً لما سبق يقول الله تعالى في محكم التنزيل: (فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[١١٨]، جاء في **تفسير هذه الآية** ما مفاده أن العقل في القلب، وكيف أن لهما علاقة وثيقة ببعضهما، "وهذه الآية تقتضي أَنَّ العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا يُنْكَرُ أَنَّ للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ"[١١٩].

- **مقصد حفظ المال:**

إنّ حفظ المال من الضرورات الهامّة التي نصّ الشرع القويم عليها من ناحيتي الوجود والعدم، بل إن الشرع هذّب هذا الجانب بما لا يطغي الإنسان ويدفعه إلى حوزة ما ليس له ظلماً وبهتاناً، وما كان هذا التنظيم المحكم إلاّ حرصاً على المجتمع حتى لا يختل بنيانه، وليبقَ قائماً على العدل والمساواة وبذل الجهد سعياً في الأرض لتحقيق هذا المقصد.

أمّا الدليل القرآني عليه ويليه تفسيره فقد قال تعالى في كتابه الكريم: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"[١٢٠] جاء في تفسير السعدي: هو الذي سخر

---

١١٨ سورة الحج. الآية ٤٦

١١٩ الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد. ١٤١٨-١٩٩٧. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٢٩/٤.

١٢٠ سورة الملك، الآية ١٥.

لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، "فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا" لطلب الرزق والمكاسب، "وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحانًا، وبلغةً يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة[١٢١].

ولقد أولى الإسلامُ العاملَ مكانةً عظيمة، إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده"[١٢٢]. وفي سبيل تحقيق مقصد حفظ المال نظّم الإسلام المعاملات تنظيماً محكماً يكفل النماء الحضاري الآمن، نظاماً يجمع بين مرونة الشرع وسعته، والتقدم العصريّ الملموس، وخلال الأسطر التالية أحاول -بإذن الله- عرض بعض التطبيقات العلمية الحديثة التي تساعدنا على تحقيق مقصد حفظ المال، وبالله التوفيق.

التطبيقات العلمية الحديثة المتعلقة بحفظ المال:

يشكل الحصول على المال الهاجس الأكبر الذي يشغل الجميع، ومنذ قديم الأزل وحتى الآن لايزال الإنسان ينتقل من بلدٍ إلى آخر حتى يؤمّن لنفسه ومن يعول المصدر الآمن الذي يكفيه عناء الحياة ويضمن له أساسياتها.

---

١٢١ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. ١٤٢٠-٢٠٠٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. نشر مؤسسة الرسالة، لبنان، ٨٧٧/١.

١٢٢ البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله. ١٤٢٢- ٢٠٠١ صحيح البخاري، المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري. نشر دار طوق النجاة ببيروت، الحديث رقم ٢٠٧٢، ٣-٥٧.

ولأن الحضارات لا تحقق هدفها إلا بالمال إضافةً إلى بقية الأركان فإنّ الدول والجماعات لازالت تخلق الكثير من الفرص التي تؤمّن لرعاياها المصدر الماديّ الآمن وكرامة العيش. وفي هذا المقصد حاولت الباحثة جمع بعض الأفكار والتطبيقات التي أرجو الله أن يكون في العمل بها بعد تطويرها ودراسة كل جوانبها تنمية للمال وحفظه، من خلال تطبيق بعض الجوانب العلمية التي جاءت متناسقةً مع الآيات القرآنية والتوجيه الشرعي السليم، وبالتالي نماء المال، وزيادة الدخل العام والخاص، والحدّ من الجرائم المتفشّية بسبب الفقر، وهلمّ جراً من المنافع.

١- نظراً إلى نمط الحياة المدنيّة التي يغلب علينا التعايش معها، وقوّة العملية الاستهلاكية بيعاً وشراءً، وما يترتب على ذلك من تراكم النفايات بكل أنواعها، وما تخلفه هذه النفايات من تلوث المدن والشواطئ، فرض هذا الواقع على الدول توظيف الكثير من القوى العاملة للتنظيف المستمر، حدّاً من تفشي الأمراض والأوبئة وحفاظاً على البيئة امتثالاً للنصوص الشرعية، ومع ذلك فإن التزايد السكاني وتنوّع المخلفات أمرٌ أكبر من أن تحصره جماعة.

ماذا لو كان فرز النفايات وتصفيتها وتنظيم التخلص منها وما يُحتاج معه إلى إعادة تدويرٍ أو لا عملٌ يقوم به كل منزل، أو كل حيّ، وذلك من خلال تقسيمها في حاوياتٍ مخصصة، على سبيل المثال إن جمع أحد المنازل مخلفاته البلاستيكية فهناك من المصانع من تشتريها منه لتعيد تدويرها، وهكذا المعادن، ومثلها المواد الغذائية ... هذا سيؤدي بالفرد منّا إلى الحفاظ على ما بين يديه، إضافةً إلى تنويع مصادر الدخل وبناء المسؤولية المجتمعية كباراً وصغاراً.

ولا يخفى أن تأسيس مثل هذا العمل لاسيّما في مناطق الاكتظاظ السكاني أمرٌ مكلفٌ على الدولة أن تتبنّاه، ولكن بالنظر إلى النتائج المرجوّة ودراسة جدواها بعمق فإن هذه التكلفة ربما ستكون للمرة الأولى وبعدها فإن المجتمع سيحمل نفسه بنفسه، منتقلاً من الاستهلاك إلى رفع الإنتاج.

وفي خضمّ البحث عن تطبيق هذه الفكرة وجدتُ بعض الدراسات التي تؤكد ذات الفكرة، بل وتزيد عليها في محاولةٍ لإيجاد وسيلةٍ آمنة للتخلّص من المخلفات الطبية دون الإضرار بالمجتمع، وإن كانت الطرق الحديثة للتخلص من هذه المخلفات أكثر تطوّراً عن ذي قبل إلا أن أبعادها خطرٌ محدق، لاسيّما وقد كان العالم في دوّامة الوباء العالمي كوفيد ١٩ حمانا الله منه، وكثرة المرضى والمخلفات وحساسية الوضع العام ضد أي تلوث.

أمّا عن الكيفية التي تحدُّ البلوى بإذن الله فتكون بحرقها ضمن حرارة تحافظ على المعايير البيئية، ثم التعقيم بالبخار المشعّ الذي يضمن القضاء على البكتيريا، كما أن العلماء لايزالون يدرسون كيفية التخلص من هذه النفايات الخطرة بطريقة البلازما الآمنة[١٢٣] .

٢- العالم اليوم يتجه نحو السرعة، نحو إيجاد البدائل الآمنة، وتنويع مصادر الدخل لحياةٍ أكثر وفاءً بمتطلباتها، ولأن زمن كتابة هذه الدراسة جاء في أوج أحداث الوباء العالمي المعاصر كوفيد ١٩، وما خلفه انتشار الوباء من إغلاقٍ شامل، وانقطاع مصادر الدخل عند الكثير من العاملين، وتراكم الالتزامات المالية، وهلمّ جراً من المشكلات التي نسأل الله أن يجيرنا منها.

في خضمّ ما يحصل، واستفادةً من هذا الدرس القاسي أملاً بإذن الله أن لا يتكرر، وتماشياً مع التطبيقات العلمية المعاصرة التي يتحقق خلالها مقصدٌ شرعي رأيتُ الحديث هنا عن توسيع فكرة استخدام الطاقة الشمسية على نطاقٍ أوسع: كهرباء المنازل، ووسائل النقل، وتحلية المياه ... وها سيكون له المردود من جانبين: أحدهما تخفيف المصروفات المالية والحفاظ على المدخولات، فبدلاً عن تسديد فاتورة الماء والكهرباء ووقود السيارة ... يستثمر هذا المال في أمرٍ ليس منه بديل، هذا بالإضافة إلى أن تقنين وتنظيم هذا النمط يوفر على الدولة كثيرً من الأعباء والالتزامات رغم تكلفة إنشائها في بداية

١٢٣ للاستزادة في هذا الأمر راجع: إعادة التدوير إنقاذ للطبيعة وتحويل النفايات إلى أموال. www.alaraloy.com .

الأمر، ذلك أن عالمنا بعد أزمة الوباء لن يكون كسابقه، ستتجه ثلةٌ من المؤسسات نحو العمل من المنازل، والتدريس عن بعد، ومنافذ أخرى حققت نجاحها خلال فترة الأزمة وستستمر على نمطها، هذا يعني استهلاكاً لطاقة الكهرباء من إنارةٍ وتكييف أو تدفئة.. الخ.

أما المردود الآخر: فسيكون في الحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث الناتج عن استهلاك الطاقات غير النظيفة، وما يخلفه هذا التلوث من أمراضٍ ومشاكل لا حصر لها.

الدليل القرآني وتفسيره مما جاء عن علماء التفسير:

إن الشرع القويم إذ جاء، جاء بنظامٍ كامل يكفل كل شوارد الحياة، سواءً المعاصر منها أو ما سلف، تشريعٌ حيويٌ في نفسه وفي إرشاده، سخّر لنا وفرة الكون لنستفيد منه ونفيد، فنحافظ على ما بين أيدينا أن نصرفه رغم وجود البديل الآمن، ونحافظ على هبة الله أن يلحقها التلف والعبث، وبين ذا وذاك نحقق العمران المأمول الذي ينسجم مع شرعنا القويم. وفي هذا قال تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[١٢٤]، جاء في الفواتح الإلهية تفسيراً لهذه الآية العظيمة ما نصّه: " وَبالجملة قد سَخَّرَ لَكُمْ وهيأ لتربيتكم وتدبير معاشكم مظاهر ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً إذ أنتم زبدة الكائنات وخلاصة الموجودات كل ذلك منتشى مِنْهُ سبحانه مستند اليه أولا وبالذات فعليكم أن لا تسندوه الى الوسائل والأسباب العادية (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) في تتابع آلاء الله وترادف نعمائه وكيفية ظهور العالم منه سبحانه وصدوره عنه وارتباطه له واستمداده منه على الدوام"[١٢٥]

مقصد حفظ النسل:

---

١٢٤ سورة الجاثية، الآية ١٣.

١٢٥ الشيخ علوان النخجواني، نعمة الله محمود. ١٤١٩-١٩٩٩. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية. دار ركابي للنشر بمصر. ٣١٤/٢.

حافظت الشريعة الإسلامية على النسل أن تلحقه لوثة الأخلاق التي يعاني منها عالم اليوم بسبب الانفتاح الثقافي والتداخل المعرفي وانعدام القدوات، ذلك بعد أن اجتاح التفلّت الغربي معاقل الأسرة المسلمة، مهدداً كيانها، مزعزعاً أركانها، بدءاً بالعلاقات المحرمة بين الجنسين، ومروراً باختلاط الأنساب وضياعها، ثمّ انتهاءً إلى تمييع الحواجز الدينية والأخلاقية وتشريع ما تستنكره الفطرة السليمة والعقل السوي! "والحقيقة أن الجريمة الأخلاقية التي غرق فيها الغرب في هذا المجال – ويحاول أن يغرق البشرية معه – هي من أخطر ما وقع فيه بعد فساد العقيدة وتبني "اللادينية"، فالأرقام والإحصائيات تنطق بآثار التهاون في موضوع حفظ النسل الذي عني به الإسلام عنايةً لا نظير لها.

إن غيضاً من فيض هذه الإحصائيات كافٍ لتصوير هول الفجيعة والأزمة الإنسانية، فهناك أكثر من مليون طفل غير شرعي سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية، و٢٠٪ من المواليد المسجلين رسمياً في ألمانيا من دون زواج، وهو ما يستتبع وجود حوالي مليون حالة إجهاض سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية، وأن الغرب يسجل النسبة الأعظم من إجمالي عدد حالات الإجهاض في العام سنوياً والبالغة ٣٠ مليون حالة"[١٢٦] وهو ذاته الخط المحدق الذي يريدون إغراقنا في براثنه إن لم نتدارك الوضع بتوفيق الله.

في ظل هذه الهجمة الشرسة حريٌ بالمسلمين تحقيق المقصد الشرعي ضمن قنواتٍ علميةٍ معاصرةٍ، تنفذ إلى المجتمع من قبيل ما يُغزى، في محاولةٍ لجمع أهم الأساليب العلمية الوقائية التي لا تخرج عن توجيهات الشرع القويم، وبالله التوفيق.

- **التطبيقات العلمية الحديثة المتعلقة بحفظ النسل:**

سبق وأن تطرقت إلى تأثير الإعلام على الأخلاق والقيم أثناء الحديث عن مقصد حفظ العقل، وكيف تتأثر هذه المسلّمات بهذه المدخلات وكيف تتزعزع!

---

١٢٦ مقالة: كيف حفظ الإسلام النسل؟ موقع المسلم: www.almoslim.net .

هنا أيضاً أعيد الحديث باقتضابٍ، ولكن من جهةٍ أخرى، إذ بات الإعلام اليوم بكل أنواعه وسائل تبني وتهدم، والباحثة هنا بصدد عرض الجانب الذي ترجو علاجه، دمجاً بين بين نصوص النقل وواقع العلم والعقل. ولا ينبغي بحالٍ المطالبة بإبعاد المبادئ والقيم عن الإعلام المعاصر، المجتمع فعلياً يقبع في المنتصف بين خطورة الفصل، وضرورة الوصل، لأن الإقصاء تخلّفٌ ورجعية، وهو ما لا يليق بالمجتمع المسلم الحضاري.

الإشكال هنا: حين يحاول الإعلام بوسائله المتعددة الناعمة تغيير أهداف النصوص، وتكرار بعض المشاهد، وتذويب الحواجز الدينية والأخلاقية ببين الجنسين، وتعويد الأعين على شعاراتٍ ذات أهدافٍ منحطّة، وشيئاً فشيئاً تألفها الأعين والآذان، حتى إذا ما استنكرها أحدٌ نُعت بالجمود والتحجر!

يحافظ الشرع على مقصد حفظ النسل أن يكون كما أشاع الإعلام وغيّر كثيراً من المبادئ: الزنا يكون بالتراضي ولا ضير، واللواط والشذوذ حريةٌ شخصية، والمثلية والمتحولون جنسٌ ثالث يجب الاعتراف به، كلها مشاهد أصبحت ملحوظةً بشدة، والأدهى والأمرّ أنها شاعت بين أوساط الشباب المسلم، وهذا ما يُهيب بمن يهمه الأمر للحديث عنها ويجعل المسؤولية الملقاة على العاتق ثقيلة. وطرح هذه الأمور المفصلية الحساسة غالباً من المسكوت عنه إعلامياً، المظلوم مجتمعياً، حتى طغت على السطح كارثةً تنتهك الكرامة، وتخالف الواقع، وتهين الفطرة البشرية جمعاء.

أما عن كيف يتم حفظ هذا المقصد من خلال الوسائل العلمية الحديثة:

١- منها أن تتم فلترة كل هذه المدخلات التي تقوّض الأخلاق، وذلك بترتيب ومراقبة من أي جهةٍ معنيّةٍ بالأمر، فتُحجب الأفكار والبرامج والصور ذات المحتويات غير اللائقة، وينتقل الأمر إلى الوالدين وأولياء الأمور بتكثيف الرقابة على من تحتهم، رقابةٌ تبقى أواصر الثقة ولا تترك الحبل على الغارب. إضافةً إلى سنّ العقوبات التعزيرية على كل من يدعوا ويروّج لهذه الأفكار، بل لو تطلب الأمر إيقاف دخولهم

وانتشار ذوي الهيئات المخلّة في الأسواق والأماكن العامة، تقليصاً لحجم وجودهم حتى إذا ما ضُيّق عليهم الخناق لم يكن هناك بدٌ من الرجوع إلى الطريق المستقيم.

٢- بما أن حفظ النسل ينطلق من حفظ كينونة الأسرة التي هي لبنتها الأولى: أرى أن تكثيف البرامج والتطبيقات على الهواتف الذكية وإجبار التسجيل فيها لكل من ينو الزواج توعيةً لها ولها بما يلزم كل طرف، وتأكيداً على الحقوق والواجبات المنوطة بالطرفين، وحدّاً من المشكلات التي تهدد حفظ النسل البشري، كتزايد حالات الطلاق، والانحرافات السلوكية، والخيانات، وما يجرّ وراءهُ من عواقب جسيمة.

نظراً لنمط الحياة المتسارع، الذي أصبح الالتزام فيه بالحضور الفعليّ أمرٌ صعب، ولأن العالم الافتراضي سَهّل -بأمر الله- كثيراً من الأعباء، فإنّ بثّ مثل هذه البرامج عبر المنصات العلمية، وربطها بدائرة توثيق شؤون الأسرة حتى يكون حضورها إلزاماً، مساهمةً في حفظ النسل والأسرة من الأخطار المحدقة بها.

هذا ولقد كشفت دراسة حديثة، أن نسبة الطلاق بين الشباب الذين خضعوا لدورات تأهيل الأزواج انخفضت بشكل كبير ووصلت إلى ١,٧ بالمئة في مقابل ٩٨,٣ بالمئة من نفس العينة يستمتعون بحياة أسرية مستقرة وهادئة، ووجد الباحثون أن دورات التأهيل تهدف إلى إعداد الزوجين من الناحية الأسرية لتحقيق الاستقرار والسعادة، والتعرف على الإجراء الوقائي قبل التعرض لأي نوع من المشاكل الزوجية التي من شأنها أن تهدم الأسرة لمجرد الجهل بكيفية التعامل معها، بالإضافة إلى وضع نموذج للممارسة العملية والتدريب الأسري والاستفادة منها في استقرار المجتمع، وأوضحت الدراسة أن الأثر السلبي الذي تلعبه التقنية والمتمثلة في الإنترنت ودور السينما في تفاقم المشكلة لعدم تناولها طبيعة الحياة الزوجية بصورة موضوعية سليمة، بالإضافة إلى الموروثات والمفاهيم المغلوطة والعادات والتقاليد

البالية التي مازالت تؤثر على حياة جيل الشباب[١٢٧]. وإضافةً إلى برامج توعية الطفولة من التحرش، والانحرافات والأفكار الهادمة المعاصرة، وحدود التعامل الخاصّ مع الغريب والقريب، كل مرحلةٍ وما يناسب تطورها ضمن قالبٍ فكريٍّ وشرعيٍ أخلاقيٍ راقٍ.

في سبيل تحقيق هذا المقصد جاءت التشريعات والآيات الدالّة عليه، إذ قال تعال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[١٢٨] ومن المعلوم أن الانحراف يبدأ بخطوات، ترقّق كل خطوةٍ ما قبلها، حتى يقع المحظور الأكبر، لذلك نهى الله عن السير فيها وقطع شآبيبها من مبتدأها. وقال سبحانه أيضاً: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)[١٢٩] نهى الله هنا أيضاً عن الاقتراب من هذا السبيل، وحفظ هذا الكيان بالتشريعات والعقوبات والآداب وجميع ما يحقق السلامة الأخلاقية والبناء المتماسك، قال الشيخ السعدي في تفسيره: "والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإنّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصاً هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داعٍ إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه (كَانَ فَاحِشَةً) أي: إثماً يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد، وقوله: (وَسَاءَ سَبِيلًا) أي: بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم"[١٣٠].

---

١٢٧ راجع الدراسة منشورةً في موقع صحيفة العرب: .alarab.co.uk، عنوانها: دورات تأهيل الأزواج خطوة لحماية الأسرة، الخميس، ١٦ مارس، ٢٠١٧.

١٢٨ سورة النور، الآية ٢١.

١٢٩ سورة الإسراء، الآية ٣٢.

١٣٠ السعدي، عبدالرحمن ناصر. ١٤٢٠-٢٠٠٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. نشر مؤسسة الرسالة، بيروت. ٤٥٧/١.

مقصد حفظ النفس:

صان الشرع القويم النفس البشرية وحفظها عن أن يلحقها ما يدمرها أو يخل بها، وصولاً إلى تحقيق الهدف النبيل، حتى تكون هذه النفس متوازنةً تقيم أمر الله ثم الحياة، حيث حفظها الشرع حفظاً يسمو بها عن الدناءات والزلل. وضع الشارع –سبحانه– الحدود والديات، وحرم قتل النفس بغير وجه حق، وسدّ دواعي الجريمة، وجعل الاستزادة والتفكير في طرق حفظ النفس أمراً مباحاً مادامت تحقق المطلوب دون مخالفة دينٍ أو واقع. قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)[١٣١]: شمولاً بالرعاية منذ تخلق النطفة الأولى، وملازمةً في حفظ النفس خلال مراحل الحياة كلها حتى الوفاة.

ولأنه إن لم تجد هذه النفس سكونها واطمئنانها ما قامت للحياة قائمة، فاستقرارها أساس راسخ يهيب بالمرء أداء العبادات والعمل، والتفكير والإنتاج، والتقدم في كل مدراج الحياة، لأنه لا حضارة وقد اضطربت النفس وفقدت سكونها، وفي هذا قال تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)[١٣٢].

ومن باب تحقيق مقصد حفظ النفس بطرقٍ وتطبيقاتٍ علمية تنساق مع ما جاء في الشرع القويم وتواكب القفزات العلمية المعاصرة، إعمالاً للعقل واستنباطاً في حدود النقل أمضي مستعينةً بالله في طرح هذه التطبيقات، محاولة في الإسهام والإلمام.

– التطبيقات العلمية الحديثة المتعلقة بحفظ النفس:

١– يرتبط حفظ النفس ارتباطاً وثيقاً بتوفير البيئة الصحية الآمنة، ذات الرعاية المتقدمة، سواءً كانت هذه الرعاية مقدمةً من المشافي، المرافق العامة، الثقافة المجتمعية، والحياة العلمية.

---

١٣١ سورة الإسراء. الآية ٧٠.

١٣٢ سورة قريش. الآيتين: ٣–٤.

أتوقف عند نقطة الربط بين الحياة العلمية وتحقيق حفظ النفس، ذلك أن تسارع الحضارة وزيادة تعقيداتها وصخبها رغم ما فيها من قفزات وإنجازات، إلاّ أنها كانت سبباً في تغيير الكثير من العادات الصحية، ممّا خلّف انتشاراً واسعاً للأمراض المزمنة، وهذه الأمراض ومضاعفاتها هي في خلاصتها ضررٌ بالنفس

السكر والضغط: مرضان يكادان يتصدران قائمة أكثر الأمراض شيوعاً في كثيرٍ من البلدان، وذلك وفق دراساتٍ حديثة، والخطر المحدق ليس عليهما فحسب، بل بما وراءهما من مضاعفاتٍ كالعمى والفشل الكلوي، والنوبات القلبية والسكتات الدماغية –عافانا الله وإياكم– [١٣٣].

لأجل ذلك فإن اعتماد تطبيق علمي يتم تحميله على الهواتف الذكية، ويرتبط ارتباطاً مباشراً بالمراكز الصحية من جهة، وبأولياء أمور المرضى من جهةٍ ثانية، إذ يتيح هذا التطبيق التعرف على المريض ببصمة اليد أو العين ومراقبة حالته الصحية والأهم هنا أنه يرسل إشاراتٍ أو تنبيهات لذوي المريض في حالة انخفاض السكر أو ارتفاع الضغط أو أي حالة طارئة، لأن هذه الحالات متكررة وتتطلب التدخل السريع إسعافاً مبدئياً حتى يصل المريض المشفى أو ربما لن يحتاج إليه إذا تمّ التعامل مع الحالة على الوجه الصحيح. وبالتالي فإنّ النفس قد حُفظت –بإذن الله– وتم إنقاذها مما هو أكبر شأناً وأعظم تعقيداً كالجلطات، والسكتات الدماغية ثم الوفاة لا سمح الله.

من هذا الأنموذج نستطيع تلمّس الأثر الفارق الذي سيصنعه تفعيل هذه التطبيقات الحديثة على تحقيق مقصد حفظ النفس، وغيره من المقاصد السامية المندرجة تحته.

---

١٣٣ في مصادر هذه الدراسات العلمية راجع موقع وزارة الصحة بالمملكة العربية السعودية: **www.moh.gov.sa**: اليوم العالمي لمرضى السكري ١٤ نوفمبر، ٢٠٢٠.

تعرف على أكثر خمسة أمراض شيوعاً في العالم، www.skynewsarabia.com _ ٨ أبريل، ٢٠١٩.

في هذا المدار أيضاً يأتي أثر الثقافة الصحية، والتعليم المستمر بالإسعافات الأولية سواءً أدرجت ضمن خطط التعليم أو كان لها سبيل آخر، المهم أن يحمل المجتمع المسلم نفسه بنفسه، بنيانٌ واحد، في مرض أحده ذبول الآخر، قال تعالى: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا).[١٣٤]

٢- ذات يومٍ ماطرٍ شديد الازدحام وفي وقت ذروة الأعمال، وقع أمام عينيّ حادث مروري كبير، وبطبيعة الحال هرع الناس إلى الاتصال بالإسعاف لإنقاذ الحالة، حيث أنها كانت في وضعٍ حرج يتطلب النقل العاجل.

مرّت الدقائق كأنها سويعات ولم يصل أحدٌ بعد -ليس تقصيراً- ولكن بسبب الازدحام أولاً ثم غزارة المطر ثانياً، والمريض ينزف دمعاً ودماً.

مشهدٌ يكاد يتكرر يومياً، وقصة ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، بل هي هاجسٌ يؤرق الكثير. ساقني هذا المشهد المؤلم إلى استنباط فكرة الكبسولات الإسعافية، وهي كما أتصورها مركبة ذات تقنيةٍ علمية متطورة المهام فائقة السرعة، يتم تزويد المشافي بها وتصل إلى مكان الحدث في وقتٍ حاسم دون التعثّر باكتظاظٍ مروري أو ظرفٍ بيئي. تصل هذه الكبسولة الإسعافية إلى أي حيّزٍ وتستقر فيه لتنقل المريض إلى المشفى برفقة طاقمٍ مختصّ يباشر الحالة سريعاً خوفاً أن تفقد الحياة، وحتى يسهل تطبيق هذه الفكرة فإن هذه الكبسولة الإسعافية لن تحتاج إلى مدرجٍ خاص بالهبوط، فتصل إلى المنازل والشوارع وكل مكانٍ يُرسل منه طلب استغاثة، وإني على يقين بأن هناك من سبق إلى هذه الفكرة العلمية التي تحقق مقصد حفظ النفس، وفي تطويرها والعمل بها أتأمل سلامة الأرواح والممتلكات -بإذن الله-.

أما الدليل القرآني فهو القائد، أما وقد بسط الله لنا العلم بكل فنونه وسهّل أبوابه رغم جهلنا وقلة إحاطتنا مصداقاً لقوله: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

---

١٣٤ سورة المائدة، الآية ٣٢.

قَلِيلًا)[١٣٥]، **جاء في تفسير هذه الآية:** "(وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل هو خطاب لليهود خاصة، والأول أولى، ويدخل فيه اليهود دخولاً أولياً، والمعنى أن علمكم الذي علمكم الله ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه وأن أوتيتم حظاً من العلم وافراً، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام"[١٣٦].

فإنه حريٌ بالمسلم أن توظيف هذه المكنات والتطبيقات العلمية فيما يحقق الحياة المستقيمة بكل ضروراتها ومقاصدها السامية، فإن ذلك من القوة بكل معانيه، إذ كان خطاب الله لنبيه يحيى –عليه الصلاة والسلام– خطابٌ لنا جميعاً: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)[١٣٧] .

وأخيراً فإن المجتمع لا يستقيم إلاّ بالشرائع، وإنّ شريعتنا الغرّاء قد رفعت العلم وأهله من غير تحيّزٍ لفئةٍ دون أخرى، بالعلم التطور، وصناعة حياةٍ فارقة، حياةٌ أصلها التشريع وفرعها العلم الحديث، في اتساقٍ يجعل لتطبيق المقاصد أبواباً حديثةً شتى، حينها ستكون الحياة الأعظم أثراً لأنها تسترشد بنور الله وهديه القويم ثقةً بوعده.

---

١٣٥ سورة الإسراء، الآية ٨٥.

١٣٦ البخاري القنوجي، أبوالطيب محمد صديق خان. ١٤١٢-١٩٩٢. فتح البيان في مقاصد القرآن. نشر المكتبة العصرية للطباعة، بيروت. ٤٤٨/٧.

١٣٧ سورة مريم، الآية ١٢.

المبحث الثالث

أوجه الحاجة إلى توسيع آفاق الطرح المقاصد

جاء الحديث عن الآفاق المقاصدية وضرورة توسيعها منطلقاً من فكرة الإبداع والنظرة الفاحصة للأمور، إذ لم يكن الإبداع حصراً على تخصصٍ معين أو علمٍ دون غيره، بل هو داخلٌ في كل أمور الحياة ومرتبطٌ بالنشاط الذهني والفطرة السليمة التي فطر الله العباد عليها، إذ لم يركن الإنسان يوماً إلى غابر الحياة ومبتدأها، بل طوّرها ولايزال ينمو معها يوماً بعد يوم، هذا التطوير الذي كان وليد حاجة الإنسان إليه.

حين يناقش الباحث في ثنايا بحثه مسائل جوهرية هو يهدف في المقام الأول والأخير إلى معالجة قضيةٍ مفصليّةٍ في المجتمع، حينها لا يكون الحديث ترفاً، لا يتجاوز الكتب على الرفّ، أو ركاماتٍ من الورق على منضدة باحث! وتجاوز الأمر هذه النقاط إلى ما هو أبعد منها، ليحدث اتساقاً بين الشرع والواقع، لبناء لبنة حياةٍ جديدة بأحكامها وظروفها.

- **التعريف اللغوي والاصطلاحي لهذا المصطلح:**

قبل الحديث عن أوجه الحاجة إلى توسيع الفهم المقاصدي وما يلي ذلك من أفكارٍ تناقش ذات الهدف، ينبغي تناول المعنى اللغوي لكلمة "توسيع" وهي على وزن تفعيل، وأصلها وسع، ومعناها: وسعه الشيء بالكسر يسعه سعة، والوسع والسعة: الجدة والطاقةُ، تقول: وسعت الشيء فاتسع واستوسع، أي صار واسِعاً[١٣٨].

١٣٨ الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد. ١٤٠٧-١٩٨٧. تاج اللغة وصحاح العربية. دار العلم للملايين، بيروت. جـ٣. صـ١٢٩٨.

في أثناء البحث عن التعاريف الاصطلاحية لفكرة توسيع الطرح المقاصدي لم أجد تعاريف بذات الصيغة، وبعد تقليب النظر رأيتُ أنّ التعريف التالي قد يكون مناسباً للفكرة، فصوابه من الله، والخطأ فيه من نفسي والشيطان، وفيه أقول: هو مدّ آفاق النظرة الشرعية الواقعية لما استجدّ من أمور العلم والحياة، وذلك بما ورد في الكتاب والسنة ووافقه فيه المقاصد الشرعية الخمسة[١٣٩] .

- **لماذا الحاجة إلى توسيع النظرة المقاصدية؟**

ترى الباحثة أن كل مسلمٍ بحاجةٍ إلى توسيع النظرة المقاصديّة الشرعية في الأمور الحياتية، ذلك أن المقاصد تدور غالباً في فلك العبادات والمعاملات، وقليلاً ما يكون وجودها في الواقع اليومي المعاصر، وما كانت الدعوة إلى مثل هذا إلا لبيان هداية التشريع، وواقعيته، وإبطال أي وصفٍ يسمه بالتخلّف والخمول والانزواء عن مدارج الحياة.

هذا لا يعني التغيير فيه والتعويض، وإنما إظهار المحاسن التي اندثرت بتقادم الزمن، والعودة بإنسان اليوم المسلم المعاصر إلى عهود الفكر اللّامع تذكرةً وتطبيقاً.

فالحاجة إذاً إلى توسيع النظرة المقاصدية تعود إلى الأمور التالية[١٤٠]:

١. لأن بالعمل بها قمعٌ لكثيرٍ من الأفكار الدخيلة والشبهات التي تنساب عبر الوسائل الحديثة، وتأخذ في الناس مجراها الطبيعي حتى تصبح من المباحات وهي الشرّ المحض، ومن ذلك الألعاب الالكترونية

---

١٣٩ هذا التعريف المتواضع من اجتهاد الباحثة، وأسأل الله التوفيق فيه.

١٤٠ هذه النقاط مستنبطة من قراءاتٍ متفرّقة في الكتب والمقالات، أبرزها:

- مجلة القافلة، العدد الثالث، المجلد ٤٨، ١٤١٩-١٩٩٩. مقال بعنوان: مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي. محمد مراح.
- المناوي، زين الدين بن محمد. ١٣٥٦-١٩٧٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير. المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- الريسوني، أحمد. (مرجع سابق).

التي تحوي المناظر الخليعة، والأمور الشركية، والقمار، وكثيرٌ من أساليب التجميل النسائي الحديثة التي أصبحت مشاعةً من باب التجارة والكسب الحلال، وهي في واقعها منافاة لحفظ الدين، ونماءٌ فاسدٌ للمال، وتغذية نتنةٌ للعقل وبالتالي فساد المجتمعات وهلمّ جراً.

٢. لأن فيها تنزيلٌ للنصوص على ما يستجد من أحكام ووقائع، وبذلك يبقى النص حاضراً، وبه تتمكّن الأمة من استعاد مركب الحضارة، من خلال الأخذ بجانبي السنن الكونية والشرعية، لأنه مع تطوّر الحياة وكثرة تداعياتها نجد الشرع حاضراً مجيباً عن كل ما يستجد، فالوقائع متجددة، والنصوص ثوابت لا تقبل التغيير، ومنها وإليها يكون الرجوع.

٣. لأنّ تسارع آلة الزمن وانغماس الإنسان اليوم في معمعة الحياة يؤدي إلى البعد عن المصادر الشرعية، فتضيق دائرتها حتى تكاد تكون حاضرةً في المسجد وبقية الأحكام فقط وفي غيرها غائبة، وبالتالي نحتاج أن نلفت النظر إلى الأخذ بالفكر المقاصدي، جمعاً بين الثبات في النصوص والمصالح والتشريعات وحاجات الإنسان، والمرونة في الأحداث والوقائع المتجددة.

٤. لأن الشريعة شاملة، والحديث عن الشمول هنا لازمٌ بمكانه لنعرف لماذا هو مهمٌ في توسيع النظرة المقاصدية، إذ شملت الشريعة ومقاصدها الزمان فهي صالحةٌ إلى قيام الساعة، والمكان فهي حاضرةٌ في المدن والقرى، وبين الحجر والمدر أيّاً كان، وشملت الإنسان فاستوعبت شؤون حياته كلها، ولم تترك شاردةً أو واردةً إلّا وتحدثت عنها بما لا يدع مجالاً لكل من يحاول تغييب هذا الحضور الشرعي في الحياة.

وبالتالي فإنّ الحاجة إلى الأخذ بالنظرة المقاصدية الواسعة أمرٌ بات لزاماً، والجهد ملقىً على عاتق طلبة العلم، والأساتذة والمبتكرين والإعلاميين وغيرهم، كلٌ بحسبه، ومن منصّته يستطيع غرس هذه الأصول الثابتة وتمريرها عبر وسيلته المتاحة، فإذا كان أهل الباطل يعملون دون كلل في نشر منحلّ

أفكارهم عبر وسائل ناعمة لا يُدرك خطرها لسهولة دخولها ولتجذرها واستقرارها، فحريٌ بالمسلمين المعاصرين نهج ذات الوسيلة ولكن بما يثري ويبني، إذ مواكبة الواقع ومبارزته بجنس آلته طريقٌ يختصر الرحلة على من ينوي التغيير، لأنه لا يستقيم عقلاً أو منطقاً أن يتمّ التعامل مع اليوم بعقليّة القرن الماضي، ولكلّ زمانٍ رجالاته وأدواته، وبالله التوفيق.

المجالات التي تحتاج إلى توسيع النظرة المقاصدية[١٤١]:

إن الصبغة الشرعية المقاصدية داخلة في كل مسارات الحياة، حاضرةٌ بالنصّ والحكمة، ومع ذلك فإن من خلال البحث هناك مجالاتٍ يحسن الأخذ بها لصناعة واقعٍ أكثر ملاءمةً للنصّ، وكما سبق: النصوص ثابتة، والوقائع متجددة، وهنا بعض المجالات التي إن تمّ الأخذ بها بإذن الله فإنّا سنصنع للعقل المسلم طرقاً جديدةً يبصر من خلالها سماحة التشريع، وحضوره، ومرونته، مما يساهم في دفع عجلة التقدّم.

- **الحرص على توضيح المعاني الصحيحة للنصوص الشرعية، والفهم السليم وتطبيقه:**

فلقد فسّر رسولنا صلى الله عليه وسلم معاني القرآن العظيم، تارةً بالأحاديث، وتارةً بالأفعال، وبينها بياناً قاطعاً لا يترك أمراً في الحياة إلاّ وقد تحدّث عنه، ومصداق ذلك قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[١٤٢] ، وتلقّى الصحابة والتابعين –رضي الله عنهم– هذا الخطاب الرباني

---

١٤١ هذه المجالات مستنبطة من الكتب التالية:

- القيسي، مروان بن إبراهيم. ١٤٠٦-١٩٨٥. معالم الهدى إلى فهم الإسلام. نشر المكتبة الإسلامية/ عُممان.
- ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد. ١٤٠٣-١٩٨٣. الإحكام في أصول الأحكام. نشر دار الآفاق الجديدة ببيروت.
- الأشقر، عمر بن سليمان. ١٤٠٦-١٩٨٥. خصائص الشريعة الإسلامية. نشر مكتبة الفلاح بالكويت.

١٤٢ سورة النحل، الآية ٤٤

والبيان النبوي، إذ المقصود من كل هذه النصوص معانيها، وأسباب نزولها، وتفاعلهم النفسي معها، ومواكبتها الظروف والأحوال.

الحديث عن هذا المجال مهم، لأنه إن تُركت النصوص مطلقةً للأفهام والتصورات فقد تتعدد أشكال الدين، ويدخل فيه ما ليس منه، ويخرج منه ما هو من صلبه، إضافةً إلى تأثير عوامل الزمان والمكان والأهواء والأفكار، فالرجوع إلى المنهج الحقّ وإحيائه أراه مجالاً خصباً، بل من أهمّ المجالات التي تخدم الواقع العلميّ الحديث وتثري أبوابه المقاصدية.

- **النظر إلى الحوادث المستجدة، وإيجاد الحلول الشرعية الملائمة لها:**

فما دام الإسلام هو الدين الخالد، الشامل، ذا النصوص المحدودة التي تنطبق على الوقائع الممدودة، فلابد إذاً من اجتهادٍ مناسبٍ للمقام، يوجد الحلّ الشرعي، ويخرج الناس من دائرة القلق والحرج نتيجة البعد عن الدين، ويقطع الطريق على كل مريضٍ مارق يحاول إيجاد مداخل باهتةٍ شوهاء يتهمّ التشريع بالتخلّف والجمود.

- **تهذيب الأفهام من الانحرافات والأوهام:**

سواءً كانت انحرافات في التصرفات والسلوك، أو في المفاهيم والمبادئ، وقد عبّر العلماء عن ذلك فقالوا أن الانحراف السلوكي ناشئٌ بمرض الشهوة، أو الآخر فناشئٌ بمرض الشبهة، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية –رحمه الله–: (إن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات هذان أصل داء الخلق إلاّ من عافاه الله)[١٤٣]

١٤٣ محمد بن أبي بكر، ابن قيمالجوزية. ١٤٢٩–٢٠٠٨. مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة. دار الكتب العلمية. بيروت، ١١٠/١.

توسيع النظر المقاصدي في مجالات الدراسات القرآنية

تشمل النظرة المقاصدية نصوص القرآن والسنة النبوية، ووقوفاً على حدود هذه الدراسة فإني سأتحدث بإذن الله عن الدراسات القرآنية، ويسخّر الله للسنة من يكتب عن توسيع النظرة المقاصدية فيها[١٤٤]. حين تحدث العلماء عن مقاصد الشريعة وأهمية حضورها ومراعاتها كان الباعث الأول الحفاظ على سلامة النص من أصحاب الفهم القاصر الذين يقفون عند ظواهر النصوص، ويقتلون روحها وجلّ معانيها، وبالتالي تندرس كثيرٌ من المعاني بل تموت!

جاء علم المقاصد ليركّز على غايات الحكم وأسرار التشريع، ومعرفة الفائدة المتحققة أو الضرر المتوقّع، فهو بهذه الكيفية لا يركّز على الحكم الوارد في القرآن لذاته، لأن غاية الحكم ستتحقق بالعبادة كما أمر، ولكنه هنا يناقش غاية الحكم كونها تندرج على كثيرٍ من العبادات أو المعاملات الحياتية، فالوسيلة التي ننهجها عبادة، كما أنّ اتباع المنصوص عليه عبادة أيضاً، والالتزام بالأمر دون زيادته أو نقصه محض العبادة الخالصة، فالزيادة ظلمٌ وتجاوز، والنقصان تقصيرٌ في حق الشارع.

ندرك كلنا أنه تنشأ بين الحين والآخر إشكالات في التوفيق بين الواقع ونصوص القرآن الكريم، بصورةٍ تتناغم مع التشريع والحياة، وبين حينٍ وآخر يظهر في ميدان الدعوة من يؤيّد هذا الأمر ومن يرفضه، وفي هذا يقول الأستاذ حسين بن أحمد تعليقاً على هذه الحالة، وأنّ علاجها من وجهة نظره يكمن في: " تسليمنا بأن روح الإسلام هي التي ينبغي أن تكون الهادي للسلوك، وهذا لن يدع مجالاتٍ لاتهام الإسلام بمنافاة مقتضيات العصر، والتطورات التاريخية التي حدثت بعد القرن السابع الميلادي،

---

١٤٤ انظر في مراجعة هذه السطور:

- ابن قيم الجوزية. أبوعبدالله محمد بن أبي بكر. ١٤٢٣-٢٠٠٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين. نشر دار ابن الجوزي، الرياض.
- كتاب مجلة البيان، العدد١٥١، ١٤٢١-٢٠٠٠، مقال بعنوان: نظرات في العالمية الإسلامية الثانية. للكاتب صلاح الخليفة. راجع الموقع التالي: www.almaktaba.org.

كذلك لن تكون الحكومات والفقهاء حينئذٍ في حاجةٍ إلى المداراة والالتواء والسفسطة، وغضّ الطرف عن تفسير ما يقعون فيه من تناقض حين يقررون مثلاً إلغاء الرق الذي أباحه الإسلام، أو يستبدلون عقوبة الحبس بعقوبة قطع يد السارق التي نصّت عليها أحكام الشريعة"[١٤٥].

وهنا أقول بعد قراءةٍ وتقصٍّ لآراء بعض العلماء المفكّرين أنّ من العلماء من يؤيد ألا يلتزم بمنهجٍ محدد، بل يظلّ ينتقل من رأيٍ لآخر حسب ما يناسبه، ويعرض أفكاره حسب الموقف، وفريقٌ آخر وضع منهجاً فضفاضاً وسار عليه، فكل شيءٍ يراه مناسباً مادام لا يخلّ بروح التشريع ومقاصده العامة. ولي في هذا رأي حيث أقف في الحياد، فلا التوسّع الزائد حده مطلوب، حينها لا يكون للحكم أو الواقع غاية مادام كل شيءٍ داخل، ولا الرفض وردّ كل جديدٍ مطلوب أيضاً، حينها سنكون جامدين متخلّفين عن الواقع والحياة، ونسيء إلى التشريع حيث لا نشعر، والتوسّط هو العدل بين الأمرين بمعرفة الحدود والمنهج الواضح الواحد، والرأي الواحد الذي لا يميل حيث مالت الآراء.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

١٤٥ العوّا، محمد سليم. ١٤٢٧-٢٠٠٦. الفقه الإسلامي في طريق التجديد. نشر مكتبة دار السلام بمصر. ص٤٩.

المبحث الرابع

أخطار القراءة المنفردة للعقل دون النقل

خلق الله العقل وكرمه، وجعل له وظائف مهام متعددة، أجلّها التمييز بين الحق والباطل، واستنباط الأحكام من أصول الشريعة طلباً لمراد الله في آياته، إضافةً إلى الأمر بالنظر في مستجدات الحياة وما يصلحها ويقيمها، وما استجد فيها مع صوارف الزمان والمكان ولوازم التقدم، إذ قال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[١٤٦]، جاء في تفسير هذه الآية أن فيها قولان: "أحدهما أنشأكم في الأرض، والآخر وهو: أنه أنشأكم من الأرض؛ لأنه خلقهم من آدم، وخلق آدم من الأرض، وقوله (واستعمركم فيها) فيه قولان:

أحدهما: أطال عمركم فيها وكان الواحد منهم يعيش من ثلاث مائة سنة إلى ألف سنة، وهكذا قوم عاد، والقول الثاني: جعلكم عُمّاراً فيها، ببناء المساكن وغرس الأشجار"[١٤٧]، وعلى كلٍ فعمار البلدان نتيجة لمراحل الازدهار العقليّ العلميّ المؤسس على المنهج النقليّ السليم.

قال ابن قيم الجوزية –رحمه الله– "وكل من له مسكة من عقلٍ يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، فلا إله إلا الله، كم نُفي بهذه الآراء من حق وأُثبت بها من باطل، وأُميت بها من هدى، وأُحيي بها من ضلالة، وكم هُدم بها من معقل الإيمان، وعُمر بها دين الشيطان"[١٤٨].

---

١٤٦ سورة هود، الآية ٦١.

١٤٧ السمعاني، منصور بن محمد بن عبدالجبار. ١٤١٨–١٩٩٧. تفسير السمعاني. نشر دار الوطن بالرياض. ٤٣٨/٢.

١٤٨ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. ١٤١١–١٩٩١. إعلام الموقعين عن رب العالمين. نشر دار الكتب العلمية ببيروت. ١٩٢/٣

ثم إن الصحابة –رضي الله عنهم– مع كمال عقلهم وتمام النور الذي بين أيديهم، كانوا أكثر الناس قاطبةً في فهم الشرع وتطبيقه، ومع ذلك لا يؤخذ قول أحدهم إن كان اجتهاداً عقلياً ما دام مخالفاً لنصٍّ من نصوص الوحي، وهذا هو ما قاله ابن عباسٍ–رضي الله عنه–: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم قال الله، وتقولون قال أبوبكر وعمر"[١٤٩].

"والذين زعموا من قاصري العقل والسمع أن العقل يجب تقديمه على السمع عند تعارضهما، إنما أتوا من جهلهم بحكم العقل ومقتضى السمع، فظنوا ما ليس بمعقولٍ معقولاً، وهو في الحقيقة شبهات توهم أنه عقلٌ صريح وهو ليس كذلك، أو من جهلهم بالسمع إما لنسبتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يرده بقوله، وإمّا لعدم تفريقهم ما لا يدرك بالعقول وبين ما تدرك استحالته بالعقول، فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظنّ التعارض بين السمع والعقل: أولها كون القضية ليست من قضايا العقول، وثانيها: كون ذلك السمع ليس من الصحيح المقبول، وثالثها: عدم فهم مراد المتكلم منه، ورابعها: عدم التمييز بين ما يحيله العقل وما لا يدركه"[١٥٠].

فالعقل مهما بلغ مداه محدود، لا يمكنه خرق الغيب ومعرفة المستقبل، هذا في أمور الدنيا الحاضرة فكيف إن كان الأمر في أمور الشرع والنصوص! الحديث هنا ليس لإلغاء مكانة العقل ورفع النقل دون ضابط، بل ليكون كلاً منهما في مكانه الصحيح دون إفراطٍ أو تفريط، فتاريخ العالم يخبرنا أنه مرّ بأزماتٍ كثيرة وعهودٍ مظلمة، جرّاء الاستناد على العقل وإغفال النصّ، وهكذا تتعاقب الحقب لتعيد نفس الإشكال إلاّ أن يتعدّل المنهج، ولعلي هنا أورد بعض النقاط ذات الصلة وهي من قبيل[١٥١]:

---

١٤٩ المرجع السابق، ١٦٨/٢.

١٥٠ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. ١٤٠٨–١٩٧٨. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة. ط١. نشر دار العاصمة بالرياض. ٤٥٩/٢.

١٥١ أمامة، عدنان محمد.١٤٢٢–٢٠٠١. التجديد في الفكر الإسلامي، رسالة جامعية. نشر دار ابن الجوزي بالقاهرة. ص٣٩٠حتى ٤٢٠ بتصرّفٍ يسير .

أ. لا تعارض أبداً بين العقل والنقل، ولم ينفِ الدين الإسلامي العقل وعلومه أو يضادّ بينها، فالعقل الصحيح ثمرة الوحي الصريح الذي يهدف بكل معانيه إلى ما فيه صلاح المرء في حاضره وأخراه.

ب. كانت من أبرز مهمات الرسالة بناء العقل الواعي بعيداً عن التعصّب والجمود، والضلال واتباع الهوى، أو الإغراق في كلّ غثٍ وسمين دون معرفة مراميه.

ج. العلاقة المتينة بين الوحي والعقل لم تكن متداولةً في عصر الرسالة الأول، ذلك لأن الصحابة –رضوان الله عنهم– لم يجدوا أي تضاد بين شعائر الإسلام والانطلاقة لتغيير العالم، بل كان همهم الأكبر تغيير أنفسهم، وإصلاح ما فسد في بيئاتهم، فواجه الشرع القويم حوادث علميةٍ تستفزّ العقل وتفتح عليه أبواب الأسئلة، وذلك من قبيل الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وكثيرٌ من المعجزات التي جاءت في القرآن الكريم، وتناولها أرباب التفسير العلمي.

وفي هذا يقول عبد الحليم عويس: "حسم الإسلام الخصومة المصطنعة بين العقل والنقل، وحرّر أزمة الصراع بين الدين والعلم، والوهم الشائع في الفكر الإنساني بأن هناك صراعٌ أبديٌ بين الدين والعقل وبين الدين والعلم، لا ينطبق بحالٍ من الأحوال على الدين الإسلامي، فكلاهما –الشرع والعقل– يشكلان في الإسلام وحدةً واحدة، تتشابك أنسجتها تشابكاً محكماً"[١٥٢]، يقول تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)[١٥٣] فبتمامه تنشأ العقول وتنتج. ومع كل هذه الجهود المبذولة في الحفاظ على مكانتي العقل والنقل إلاّ أننا نجد من رفع العقل على النقل، حتى لم يعد للنصّ قيمة، وهنا جمعتُ أهمّ الأخطاء التي خلّفت بسبب هذا التوجّه أخطاراً، كان لزاماً التنبيه عليها نُصحاً وبياناً.

١٥٢عويس، عبد الحليم.١٤٢٧-٢٠٠٦. مجلة البيان، مقال: النهضة الإسلامية مشروطة بالاعتماد على التراث والمعاصرة. **www.albayan.ae**

١٥٣ سورة المائدة، الآية ٣.

خطورة القراءة المنفردة للعقل دون العقل تتمحور في النقاط التالية:

أ. إنّ في تقديم العقل على النقل هدمٌ للنصوص قطعيّها وظنّيها، وجعلها تحت العقل القاصر الذي يحاول التعبير عن كلام الله العظيم، إضافةً إلى أنها خلقت كثيراً من الطوائف المنحرفة والفرق الضالّة.

ب. يتعلق بالفقرة السابقة ما يتمسّك به بعض العامة فيما نُقل عن الأحناف والمالكية أنهم يقدمون العقل على النقل، والمصلحة على النصّ، كل ذلك تحريفٌ عن مظانّه، وبالتحقيق الأُصولي نجد أنّهم يستخدمون العقل في حدود ما يخدم النقل ويؤيده، ومن ذلك طريق المعتزلة ودعاة التجديد[١٥٤].

ج. كثيرٌ من المنقول يقع خارج المعقول، إذ يفوق قدرات العقل البشري، فيكون المرء في حيرةٍ منه، والأصل هنا أن يرجع المعقول إلى المنقول، اعترافاً بعجز العقل أن يستجد بكل ما يستجد، أما أن يُتخذ عدم فهم المعقول ذريعةً لرد المنقول فهذا من أكبر الأخطار التي تهاجم واقع النصّ الشرعي، وتقف حاجزاً بينه وبين تحقيق المقصد منه[١٥٥].

د. تقديم العقل على النقل يؤدي بصاحبه إلى التفويض والتعطيل، فقد قال شيخ الإسلام:" أن يُقال غاية ما ينتهي إليه المعارضون لكلام الله ورسوله بآرائهم، من المشهورين بالإسلام هو التأويل أو التفويض والتعطيل، فأمّا الذين ينتهون إلى أن يقولوا الأنبياء أوهموا وخيّلوا ما لا حقيقة له في نفس الأمر فهؤلاء معروفون عند المسلمين بالإلحاد والزندقة"[١٥٦].

---

١٥٤ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس. ١٤١١-١٩٩١. درء تعارض العقل والنقل. ط٢. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة. ص٣٤٠-٣٤٨

١٥٥ أمامة، عدنان محمد.١٤٢٢-٢٠٠١. التجديد في الفكر الإسلامي، رسالة جامعية. نشر دار ابن الجوزي بالقاهرة. ص٤٣٥-٤٣٧.

١٥٦ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. ١٤٢٢-٢٠٠١. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ط١. نشر دار الحديث بالقاهرة. ص٥٨٥-٥٩٠.

هـ. الخطر المحدق أنّ دعاة الفكر العصري المجرّد يتبنّون هذه الأفكار تمهيداً لإقصاء النصّ وهيمنة العقل على كل شيء، زاعمين عدم كفاءة النصوص للإحاطة بمستجدات الحياة، مقحمين العقل فيما لا قدرة له به، وفي هذا يقول الشاطبي–رحمه الله– "أساؤوا الظن بما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وحسّنوا ظنّهم بآرائهم الفاسدة، حتى ردوا كثيراً من أمور الآخرة وأحوالها من الصراط والميزان، وأنكروا رؤية الباري وأشباه ذلك، بل صيّروا العقل شارعاً، سواءً جاء الشرع به أم لا، بل إن جاءهم فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل"[١٥٧].

الخلاصة:

إنّ رفع العقل على النقل طريقٌ باطلٌ يتنافى مع تمام الدين ومنهج السلف الصالحين، فضلاً عن أنه من اتبع العقل دون النقل فقد تركهما كلاهما، فلا هو مع هذا الفريق أو ذاك، غير أنه قد فتح الطريق للمتشابهات، وترك الثوابت المحكمات، ولعل من أشد النتائج الفاسدة ألا يكون للوحي استدلال على أي من الإنجازات والابتكارات العلمية، فلا يصدّق حينها آيٌ أو حديث، والعياذ بالله.

١٥٧ الشاطبي، إبراهيم بن موسى. ١٤٢٩–٢٠٠٨. الاعتصام. ط١. نشر دار ابن الجوزي بالمملكة. ج٣ ص١٠٣.